

التشكيل النصي في نص - منزلة المثقف في الأمة - للبشير الإبراهيمي -

عبد الحق سوداني
أستاذ مساعد ب
المركز الجامعي - الطارف

- الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة تحليلية نصية لنص - منزلة المثقف في الأمة للبشير الإبراهيمي - من منظور لسانيات النص وذلك بإبراز أدوات الاتساق كالأحالة والوصل والاستبدال والتضاد والمصاحبة المعجمية... بالإضافة إلى آليات الانسجام كالاشتراك والعلاقات والتناص والسياق والتغريض... التي في مجموعها تؤدي إلى تشكيل البناء الكلي للدلالة للنص.

- مقدمة

في أوائل السبعينات من القرن الماضي استطاعت اللسانيات أن تتسف جميع الحدود المرتسمة بينها وبين المعارف الأخرى، فاستفادت منها استفادة كبيرة للولوج إلى عالم النص والخطاب، فنتجت معرفة لسانية جديدة سميت بلسانيات النص أو الخطاب. وفي إطار لسانيات النص تكونت رؤية شاملة في كيفية إنتاج النص وفي فهمه عبر استثمار كل المفاهيم والإجراءات اللسانية وغير اللسانية في منهج لساني موضوعي ومتوازن. والإشكالية التي علينا طرحها في هذا المقال: هل النصوص الأدبية الجزائية المقررة في القسم النهائي تزخر بأدوات الاتساق وآليات الانسجام والتي تكون من خلالها نصا متناسقا ومترابطا؟ وقد أخذنا نص "منزلة المثقفين في الأمة للبشير الإبراهيمي كمحور للدراسة. وقبل الغوص في تحليل النص أردت أو أوضّح بعض المصطلحات والمفاهيم:

1- النص:

جاء في لسان العرب في مادة (ن، ص، ص) جملة من المعاني منها:
- النص رفعك الشيء: نص الحديث ينصّه نصّا: رفعه وكلّ ما أظهر فقد نُصّ.

- نصّ الناقّة: أي استخراج أقصى سيرها، ونصّ الشيء، منتهاه.
- نصّ الرجل نصّاً، إذا سأله عن شيء حتى يستقصي كل ما عنده.¹
فالمعاني المعجمية تؤدّي إلى معنى الظهور والكمال وهذا ما ينطبق مع المفاهيم الاصطلاحية للنص.

هنا تعريفات متعددة تشرح مفهوم النص فهو يركز على اعتبارات تجعله يتجاوز حد الجملة إلى البحث عن الأبنية العبر جملة التركيبية والدلالية وأدوات اتساقها وانسجامها.

يعرف فان داك النص على أنه يقتضي نظرة أدبية وذلك بالبحث عنها عبر مستوياته ووحدات وقواعده كما أنه ينبغي أن يحل بمستويات عديدة تركيبية ودلالية وتداولية.²

أما هاليداي ورقية حسن فيعدان النص وحدة دلالية كبرى تتجه إلى تكوينها أدوات اتساق نحوية ومعجمية وآليات دلالية مشكلة بذلك قدرة نصية لدى المتلقي.³

أما جوليا كريستيا فالنص عندها "جهاز غير لغوي يعيد توزيع اللغة بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية مشيراً إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة في الأقوال السابقة، والمتزامنة معها. والنص نتيجة لذلك إنما هو عملية إنتاجية.⁴

من خلال هذه التعريفات وغيرها يجد القارئ نفسه أمام عدد كبير من التعريفات التي تناولت النص وانطلقت من نظرة خاصة ومرجعيات مختلفة وقد تنوعت مفاهيمه وتلونت بلون النظريات الأدبية واللسانية. و مادام النص إحالة إلى إطار مرجعي فإن تلك المرجعية ستحدد طبيعة التعامل معه بوصفه كلا مكوناً من عناصر متكاملة فيما بينها واعتباره الموضوع الرئيسي في التحليل والوصف.

2- الاتساق:

يشير المصطلح إلى الأدوات الكلامية التي تسوس العلاقات بين التراكيب ضمن الجملة أو بين الجمل، لاسيما الاستبدالات التركيبية التي تحيل إلى المرجع⁵، فهو مفهوم دلالي إذ يحيل إلى العلاقات

1 ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، الجزء 48، 1979، ص 4441

2 سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001، ص 16

3 خطابي، لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006، ص 13

4 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية، ط1، 1996، ص 294.

5 عنابة، 2005، رياض مسيس، النص الأدبي من منظور لسانيات النص، رسالة ماجستير، جامعة 2006، ص 158

المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدده كنص، ويمكن أن تسمى هذه العلاقة بنصية¹، وانطلاقاً مما سبق فإن الربط يحتل بوجه خاص موقفاً متميزاً في التحليلات النصية وفي تشكيل وحدة النص وقد اتفق علماء النص على أنه عنصر جوهري في تشكيل النص وتفسيره.

3- الانسجام:

يعد الانسجام آلية يستقبل من خلالها القارئ النص، فهو لا يتعلق بمستوى التحقق اللساني، "ولكنه يتعلق بالأحرى بالتصورات التي تنظم العالم النصي بوصفه متتالية تتقدم نحو نهاية، ويضمن الانسجام التابع والاندماج التدريجي للمعاني حول موضوع الكلام²، وهو أوسع من الاتساق وأشمل منه، فهو ليس خاصية تجريدية للأقوال ولكن ظاهرة تأويلية دينامية من الفهم المعرفي تتداخل فيها أنواع عديدة من المعارف الذاتية³ التي تساعد على تأويل النص وفق مجموعة من الآليات الدلالية والتداولية. وسنجلي في هذا النص أدوات الاتساق النحوية والمعجمية لبيان فعالية الاتساق ودوره في البناء النصي وقدرته على تحقيق نصية القصيدة.

4- أدوات الاتساق في النص:

4-1- الإحالة:

تعتبر الإحالة أداة تربط بين الجمل والعبارات في النصوص، فهي تحيل اللفظة المستقلة على لفظة متقدمة عليها أو متأخرة⁴، فهي ذات وظيفة اتساقية تجعل النص كلاً واحداً، كما أنها لا تكتفي بذاتها كيفما كان نوعها من حيث التأويل؛ إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، وهنا تكون الإحالة لا تخضع للقيود النحوية لتعلو، ولكي تؤسس علاقات دلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، فالإحالة نوعان داخلية نصية وخارجية مقامية.

و في نصّ البشير الإبراهيمي تتواتر الإحالة بكثرة إذ وردت في الفقرة الأولى فقط أكثر من ثماني مرات؛ أي في ثلاث جمل مركبة وهذا إن دل إنما يدل على قيمة الإحالة في الترابط النصي ودورها في ربط

1 محمد خطابي، لسانيات النص، ص15.

2 أزوالد ديكر ووجان ماري سيشافر، القاموس الموسوعي الجديد للعلوم (اللسان، ترمندر عياشي، المركز العربي الثقافي، ط2، 2007، ص504).

3 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص340.

4 رياض مسيس، النص الأدبي من منظور لسانيات النص، ص118.

الجمال النصية بالموضع الرئيسي وهو المتقف وقد رمزنا بالرمز ا ح
ض قب، بع في الجدول.
4-2- الوصل:

يعتبر الوصل مظهرا من مظاهر الاتساق النصي، ويعرفه هاليداي
ورقية حسن "بأنه تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق
بشكل منظم"¹ ومعنى هذا أن النص عبارة عن متتالية جمالية متعاقبة
خطيا وقد جاءت في نص البشير الإبراهيمي إذ وردت في الفقرة
الأولى 14 مرة مما يدل على أنها عرف اتساقا يساهم في تحقيق
نصية النص ورمزنا في الجدول عط في الجدول.

1 محمد خطابي، لسانيات النص، ص23.

تبرز الشبكة السالفة المخصصة لوصف الوسائل التي اعتمدها نص "منزلة المتقنين في الأمة" في اتساقه على أن النص شديد الاتساق مما يمكننا من استخلاص النتائج التالية من خلال الفقرة الأولى فقط:

1- أن الربط بين عناصر الجملة بواسطة حرف العطف الواو أكثر من 14 مرة.

2- أن الضمير المحيل القبلي والبعدي إلى الغائب هو الذي قام بوظيفة الربط بين الجملة الواحدة والجملة ككل في النص، وكان هو الغالب لما فيه وقد تم به بـ 28 مرة.

فوظيفة الاتساق النحور قام بها عنصران الواو داخل الجمل أو العناصر المشكلة للفقرة الواحدة والهاء ضميرا غائبا محيلا إلى ذات معينة خلال جمل النص أو إلى شيء داخل نفس الجملة أو الفقرة. وإن كلّ الإحالات القبلية تحيل بالأساس إلى الموضوع الذي يدور حوله النص وهو المتقف والأمة وأن حرف الوصل يبرز الخصائص الإيجابية لكل من الأمة والمتقف (خيارها، مادتها، قادتها، حراس عزاها،...).

4-3- الاستبدال:

و يعرف هاليداي ورقية حسن الاستبدال على أنه عملية تتم داخل النص ويتم في المستوى النحوي والمعجمي بين كلمات وعبارات¹ وسنحاول أن نوضح عملية الاستبدال التي وظفها الكاتب في النص ومدى تأثيرها في تماسكه وترابط أجزائه:

عملية الاستبدال	العنصر المستبدل
خيار الناس، السادة، القادة، الحراس، حفظة التوازن، القومة، الميزان، العيون، أهل الرأي والبحيرة.	المتقفون.

برزت عمليات الاستبدال في نص البشير الإبراهيمي ظاهرة للعيان وخاصة عمليات استبدالها لها علاقة بالموضع الرئيسي وهو المتقفون فقد استبدل اسم المتقفون بخيار الناس، الحراس، القادة.

1 المرجع نفسه، ص 19.

والسبب هو تركيز الدلالة المركزية بدلالات هامشية تؤدي إلى ترابط الفن مضمونيا وشكليا.

4-4- التكرار:

يعد التكرار من المفاهيم الأساسية في معالجة النص كما أنه أداة من أدوات اتساقه، وهو شكل من أشكال التماسك المعجمي¹، التي تتطلب إعادة عنصر معجمي أو وجود مرادف، وقد كانت ظاهرة التكرار وملمحا عاما في نص الإبراهيمي باعتبارها إحدى العناصر التي تسهم في تحقيق اتساق النص ويمكن أن نوضح من خلال المنقون: 19 مرة، الأمة 10، العلم 04، (الطاغين، المتجبر، الاستبداد)، (الدين، المقومات، العقيدة، التاريخ، اللغة).

4-5- التضام:

يعد التضام من وسائل التماسك المعجمي وهو توارد زوج من الكلمات بالفصل أو بالقوة نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك العلاقة الحاكمة للتضام تتخذ شكل التضاد أو علاقة الجزء بالكل والنص الإبراهيمي يزخر بمثل هذه الأدوات اللغوية مثل:

- تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف²

- الثقافة العربية والثقافة الفرنسية³

- إذ لا يصلح غيره من لم يصلح ذاته⁴

5- آليات الانسجام في النص

5-1- موضوع الخطاب: يعرف الموضوع على أنه نواة مضمون النص حيث يسمى مسار الأفكار القائم على موضوع أو عدة موضوعات في نص ما، ويتحقق موضوع النص إما في جزء من النص أو نجرده من مضمون النص وذلك عن طريق العبارة المفسرة الموجزة المختصرة⁵، وإذا كان كذلك كيف نتعرف على موضوع نص البشير الإبراهيمي؟

1 حدة روائية، التشكيل النصي، رسالة ماجستير، جامعة عنابة 2005/2006، ص 90.
2 البشير الإبراهيمي منزلة المثقف في الأمة - كتاب اللغة العربية وآدابها، السنة 3 ثانوي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2009، ص 182.

3

4 المرجع نفسه، ص 183

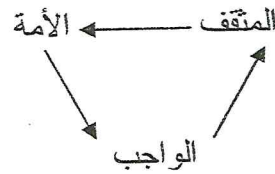
5 كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، تر حسن بحيري ط 1 ص 72

نحدد موضوع الخطاب من خلال موقعية الفكرة المعالجة في كامل النص وحركتها عبرها، كيف ذلك ؟
الفقرة الأولى: "المتقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها".¹

الفقرة الثانية: المتقفون هم حفظة التوازن في الأمم.²
الفقرة الثالثة: إن أول واجب على المتقفين إصلاح أنفسهم قبل كل شيء.³

الفقرة الرابعة: فإن التباعد بين المتقفين وخصوصا بين أهل الثقافة العربية والثقافة الأوروبية.⁴
من خلال هذه العناوين يعتبر المتقف بؤرة الخطاب وأن كل ما حوله هو توصيف وتبيين وتقويم وبالتالي يلون موضوع الخطاب "المتقف الحقيقي".

5-2- البنية الكلية: يهتم التحليل النصي بالبنية الكلية المتحققة بالفعل وهي بنية مجردة تقارب موضوع الخطاب الذي يعتبره فان دايك مفهوما عمليا⁵ أي أنها حاضرة وكامنة في البنية الموضوعية للنص وهي تتسم بدرجة من التماسك والانسجام وهذا التماسك ذو طبيعة دلالية⁶، إنما تمثل قواعد الوصول لهذه البنية فهي الحذف والتعميم والتركيب⁷، وإذا نظرنا إلى نص الإبراهيمي ومن خلال فقراته فان الثابت فيه هو كلمة المتقف والأمة والرابط بينهما هو الواجب وبالتالي نحصل على:



5-3- العلاقات: تعد العلاقات الدلالية المبنية في النص لها الأثر الأكبر في عملية الانسجام النصي، من خلال تحقيقه مبدأ الاستمرارية

- 1 المرجع السابق، ص 182.
- 2 المرجع السابق، ص 182.
- 3 المرجع السابق، ص 183.
- 4 المرجع السابق، ص 183.
- 5 المرجع السابق، ص 183.
- 6 المرجع السابق، ص 183.
- 7 المرجع السابق، ص 183.

الدلالية¹، وهذه الظواهر منتشرة على مساحة نصية مختلفة يمارس بعضها وظيفة التماسك الدلالي وبعضها موجود بفعل القوة: الإجمال والتفصيل:

أ/ المقومات الروحية للأمة: الدين والعقائد والتاريخ واللغة⁽²⁾.
ب/ الإصلاح المرحلي: إصلاح النفس، إصلاح المجتمع، إصلاح الأمة³.

ج/ المثقفون نوعان: الثقافة العربية والثقافة الفرنسية⁴.
- تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف.....⁵
ينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة ويغذونها من علمهم.... ليحلوا لها المشكلات المعقدة⁶.

4-5- التناص: تهدف الدراسات المتصلة بالتعلق النصي إلى إبراز عدم اقتصار النص على حدث واحد، إذ ربما تداخلت فيه مجموعة من الأصوات الناجمة عن تداخل النصوص، فكل نص على حد تعبير بارت تناص تمثل فيه نصوص أخرى على مستويات مختلفة⁷، وتحت أشكال قد لا تعتاص على الإدراك إلا قليلا سواء ما سلف من نصوص الثقافة وما حضر، فكان كل نص هو نسيج جديد من شواهد معادة⁸، ونص الشيخ الإبراهيمي يتضمن نصوصا بداخله للفظ وبالمعنى والأمثلة:

* تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف⁹، قوله تعالى: "... الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف"¹⁰، إذ لا يصلح غيره من لم يصلح ذاته¹¹ قال تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"¹² وأنا أشهد الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

1 المرجع السابق.

2 كتاب اللغة العربية وآدابها، ص 183.

3 المرجع نفسه، ص 183.

4 المرجع نفسه، ص 183.

5 المرجع نفسه، ص 183.

6 المرجع نفسه، ص 183.

7 عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار سوسة للطباعة والنشر 2007 ص 283.

8 المرجع نفسه ص 283

9 كتاب اللغة العربية ص 182

10 سورة قريش الآية 4

11 المرجع السابق ص 183.

12 سورة الرعد، الآية 12.

* وظهر الحق من الباطل¹ قال تعالى: "قل جاء الحق وزهق الباطل" (الإسراء/81).

5-5- التّغريض: يعتبر العنوان وسيلة قوية للتّغريض و"بأنه نقطة بداية قول ما²، فالتّغريض في الخطاب يقوم بالبحث في العلاقة التي تربط موضوعه بالعنوان، ذلك أنها أداة إبراز لها قوة خاصة، كما أن التّغريض كإجراء خطابي يطور وينمي به عنصر معين في الخطاب وقد يكون هذا العنصر اسم شخص أو قضية ما أو حادثة، أما الطرق التي يتم بها التّغريض فمتعددة نذكر منها اسم الشخص، واستعمال الضمير المحيل إليه، تكرير جزء من اسمه³ وفي نص الإبراهيمي هان ارتباط عمودي بين العنوان وفقرات النص فالعنوان هو "منزلة المتّقين في الأمة" وأن كل فقرة من فقرات النص يكون "المتّق هو بؤرة الفقرة" وبالتالي فالنص مترابط عموديا بواسطة التّغريض، وإذا أردنا أن نشكل مخططا لذلك فنحصل على:

الفقرة الأولى: المتّقون في الأمة الحية..

الفقرة الثانية: والمتّقون هم حفظة التوازن..

العنوان: منزلة المتّقين

الفقرة الثالثة: إن أول واجب على المتّقين..

الفقرة الرابعة: ... فإن التّباعّد بين المتّقين.

فالتّغريض قد حقق غرضه في النص بحيث أنه جعل النص وحدة دلالية واحدة بدءا من العنوان إلى آخر فقرة محققا التماسك الدلالي في النص.

5-6- السياق: لقد أولى اللغويون اهتماما متزايدا بالسياق ومنذ بداية السبعينات في فهم النص، ومن أهم اللغويين الذين اهتموا بالسياق العالم اللغوي فيرث، الذي يرى "أن كل كلمة عندما تستخدم في سياق جديد تعد كلمة جديدة"⁴، وإذا أردنا أن نحدد عناصر السياق من خلال النص فإنها تتكون:

1 المرجع السابق ص 183.

2 محمد خطابي، لسانيات النص ص 59.

3 المرجع نفسه ص 59.

4 جون أري جوزف، أعلام الفكر اللغوي تر أحمد شاكر الكيلاني، دار الكتاب الجديد ط 1، ص 110.

- المرسل: هو الشيخ البشير الإبراهيمي أحد رواد النهضة الإصلاحية الجزائرية المعاصرة، وأحد المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على عاتقها نشر العلم والإصلاح الاجتماعي في المجتمع الجزائري الذي كان يرزخ تحت نير الاستعمار الفرنسي طيلة قرن وربع قرن من الزمان، وأثمرت جهوده في بناء جيل حمل لواء الأمة نحو الاستقلال والحرية، فالنص جاء ضمن هذا السياق الإدراكي والمنظور الفكري والحضاري لما يجب عليه أن يكون الرجل المثقف الحقيقي في أمته.

- الخطاب: هو مضامين النص وموضوعاته القائمة في بنية خطابه، فالمرسل يبرز سمات المثقف ودوره في بناء الأمة.

- المرسل إليه: هم الطلاب والمثقفون وأهل الرأي من أبناء الأمة كل في مستواه الاجتماعي والعلمي.

وفي الأخير نخلص الى ان نص منزلة المثقف في الأمة يشتمل على شروط النصية وفق لسانيات النص بحيث تكاثفت فيه كل الأدوات اللغوية وغير اللغوية فحققت الأدبية في أعلى صورها عبر كل المستويات مما جعل النص ينتج قراءات مختلفة.

* القرآن الكريم

المصادر والمراجع: 1

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، الجزء 48، 1979.
- 2 - أنوال ديكرو وجان ماري سيشافر، القاموس الموسوعي الجديد للعلوم (اللسان، تر منذر عياشي، المركز العربي الثقافي، ط2، 2007).
- 3-البشير الإبراهيمي منزلة المثقف في الأمة - كتاب اللغة العربية وآدابها، السنة 3 ثانوي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2009.
- 4-جون أري جوزف، أعلام الفكر اللغوي تر أحمد شاكر الكيلاني، دار الكتاب الجديد ط1.
- 5-حدة روابحية، التشكيل النصي، رسالة ماجستير، جامعة عنابة 2006/2005،
- 6-رياض مسيس، النص الأدبي من منظور لسانيات النص، رسالة ماجستير، جامعة عنابة، 2006/2005.
- 7-سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001.
- 8-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية، ط1، 1996.
- 9-محمد خطابي، لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006.
- 10-عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار سوسة للطباعة والنشر.
- 11- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، تر حسن البحيري، ط1.

منزلة الإبراهيمي الأدبية، وتجربته مع الشعر المسرحي

د. عجال لعرج

أستاذ محاضر بجامعة د. مولاي الطاهر سعيدة

إنّ عمليّة الارتقاء بالأعمال الإبداعية في الجزائر تستوجب الاهتمام بما حققه المبدعون الجزائريون — عبر حقبة زمنية متعاقبة — من نتاجات أدبية، وفنية، والعمل على إثرائه، واستثمار ما فيه من طاقات فكرية، وقدرات فنية ماثورة في ثنايا نصوص نثرية، وشعرية. والشيخ محمد البشير الإبراهيمي واحد من هؤلاء المبدعين الذين أثروا المكتبة الجزائرية بنتائجهم العلمية واللغوية، وإبداعاتهم الأدبية، والفنية.

فهو قطب من أقطاب الثقافة العربية، ورائد من رواد النهضة الفكرية في الجزائر، وهو الأديب البارِع واللغوي المتمكّن الذي نال شرف العضوية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأحد المتأثرين بمدرسة الصنعة اللغوية التي تهتمّ بانتقاء الألفاظ، ونجويد العبارة، وتزيينها بمختلف ألوان البيان، والبديع.

يقول عنه بوعلام بالسايح: "لقد ملك ناصية اللغة العربية، فكان خبيراً بأسرارها صاعلاً في أساليبها بارعاً في فنونها، وأدبها..."¹ ولم تقتصر شهرته الاعتراف بتمكّن الإبراهيمي من الأدب، واللغة العربيين على الأديب الجزائريين فحسب، بل تعدّتهم إلى غيرهم من الأدباء العرب.

فهذا جميل صليبا — وهو أحد تلامذة الشيخ أثناء إقامته بدمشق — يقول عنه: "لنا كُنا في مدرسة تجهيز بدمشق جدّ مغتبطين بدروس الأستاذ الإبراهيمي التي كانت بعذوبة أسلوبها كالماء الزلال، بل السحر الحلال...، وكنا نشعر أننا أمام دائرة معارف حوت كلّ شيء"²

1 - بالسايح بوعلام، الشيخ البشير الإبراهيمي الرائد — مجلة الثقافة العدد: 87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ورشة أحمد زيانة — الجزائر، 1985 م. ص: 96

2 - شيبان عبد الزحمن، الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي، واللغة العربية، مجلة الثقافة العدد: 87، ص: 76

وهناك شهادة أخرى يُقرّها الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - وهو يتحدّث عن البشير الإبراهيمي مفادها: "كان تمكّنه من الأدب العربيّ بارزاً في أسلوب الأداء، وطريقة الإلقاء، والحقّ أنّ الرّجل رزق بياناً ساحراً، وتأنّقاً في العبارة يُذكرنا بأدباء العربيّة في أزهى عصورها..."¹

لم تكن جهود الإبراهيمي منصّبة على الكتابة، والتأليف على الرّغم من سعة اطلاعه، وخصوبة فكره وذلك لانشغاله بقضية بلده، وهموم شعبه حيث جاء في مقال له: "لم يتسع وقتي للتأليف، والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنتني أتسلّى بأنني ألقت للشعب رجالاً، وعملتُ لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصحّحت دينه، ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصحّحت له موازين إدراكه فأصبح إنساناً أيّاً، وحسبي هذا مقرباً من رضى الرّبّ، ورضى الشعب."²

حيث يقول عنه عبد الرّحمن شيبان: "كونه رجلٌ ميدان أكثر منه رجلٌ تأليف، وتصنيف بحكم واقع أمّته الذي فرض عليه الجهاد في جبهات كثيرة، فهو من الذين شغلوا بتأليف الرّجال عن تأليف الكتب"³ فكان الشّيخ البشير الإبراهيمي من المهتمّين بقضايا شعبه، وواحداً من حاملِي هموم الجزائر العربيّة المسلمة، حيث كتب في تقرير رفعه إلى مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نصّه: "إنّ الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا، ووديعة العرب في ذممنا، فمن بعض حقّه علينا أن نحفظ دينه من الضّياع، وأن نحفظ لسانه من الانحراف..."⁴

وعلى الرّغم من ذلك كلّه كان للشّيخ البشير الإبراهيمي دوره في خدمة الأدب العربيّ، وتطويره

"فهو يؤكّد على أن يظلّ أدبنا عربياً يستمدّ شخصيّته، وأهدافه من حاجتنا الواقعيّة...، ويقول: إنّ قضية قوميتنا ليست ميدان سلاح، أو حرب، وإلّا هي ميدان عقل، وفكر."⁵

1 - الغزالي محمد - مع البشير الإبراهيمي في القاهرة، مجلة الثقافة، العدد: 87، ص: 69

2 - الإبراهيمي محمد البشير - أنا - مجلة الثقافة، العدد: 87، ص: 32

3 - شيبان عبد الرّحمن، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، واللغة العربيّة، مجلة الثقافة، العدد: 87، ص: 73

4 - د. نور سليمان - الأدب الجزائري في رحاب الرّفص، والتحرير، مجلة اللغة، والأدب، العدد: 08، معهد اللغة العربيّة، وأدائها - الجزائر. ص: 535

5 - الطمار محمد - تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع - الجزائر، 1981م، ص: 433

كان الرَّجُل مهتمّاً بتحرير العقول، وتتوير الأفكار، وإيقاظ الضمائر، إحساساً منه بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقه كونه مثقفاً، وواعياً يتحمّل عليه حمل هموم شعبه، ورعاية مصالح أمّته. ومع ذلك كتب في اللّغة، والأدب، والفقه الإسلاميّ، وخلف لنا إرثاً نفيساً كان له صدهاء في عالم القراءة، والبحث، والدراسة. إنّ مآثر الرَّجُل متعدّدة، ومناقبه جمّة متنوّعة، وهي الكفيلة بتخليد ذكره، ويستشهد الإبراهيميّ نفسه في هذا المقام بكلمة ألقاها في ذكرى وفاة الشّيخ عبد الحميد بن باديس — رحمه الله — مفادها: "... يموت العظماء، فلا يندثر منهم إلّا العنصر الثّرابيّ الذي يرجع إلى أصله، أمّا معانيهم، فتبقى في الأرض قوّة تحرّك، ورابطة تجمع، ونوراً يهدي، وعطراً ينعش، وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو معنى كون العظمة خلوداً"¹

فعظمة الرّجال — كما يراها الشّيخ — لا تكمن في قوّة الأجسام، وصحّة الأبدان، إنّما في قوّة الأفكار وجمال الأعمال. فمّن بين الأعمال الأدبيّة التي تفرّد بها الإبراهيميّ نصّ "رواية الثلاثة" الذي يُعدّ عملاً فنيّاً، وأدبياً متميّزاً استقطب الكثير من القراء، واستوقف العديد من الدّارسين، حيث جمع فيه الشّيخ بين الشّعْر في طريقة نظمه، وبناءه، وبين النثر في طبيعة موضوعه متأثراً — في ذلك — بشخصية أحمد شوقي في هذا النّوع من الفنّ الأدبيّ المعروف بالشّعْر المسرحيّ.

حيث يقول محمد عبّاس عن هذا التّأثير: "...، وهي ملاحظة يستطيع الدّارس المنقّب أن يلمسها في إعجاب الإبراهيميّ بهذه الشّخصية (أحمد شوقي) إلى قدر الإغراب، فهو يجعل من شعره، وأدبه مضرباً لأمثاله، وأقواله، ونموذجاً حيّاً في كتاباته، وتعليقاته"² ويظهر هذا التّأثير جليّاً في قول الإبراهيميّ نفسه: "لم أقرأ للرّجّاز رجزاً سلساً يلتحق بالشّعْر الفنّيّ إلّا لابن الخطيب في نظم الدّول، ولشوقي في رجز دُول العرب، وعظماء الإسلام...، فشوقي إمام الشّعْر في وقتنا هذا"³

1 - الإبراهيميّ محمد البشير — عيون البصائر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع — الجزائر، ص: 683

2 - عبّاس محمد — البشير الإبراهيميّ أديباً، ديوان المطبوعات الجامعيّة، وهران، ص: 238

3 - الإبراهيميّ محمد البشير — أنا، مجلّة الثقافة، العدد: 87، ص: 34

فرواية الثلاثة عبارة عن نصّ شعريّ مطوّل تجاوز عدد أبياته واحداً وثمانين وثمانمائة بيت على تفعيلات بحر الرّجز "الترم فيه الشّيخ لزوم ما لا يلزم" الذي يسمّيه ابن جنيّ (ت: 392 هـ) بالنّطووع بما لا يلزم. حيث يُعرّفه بقوله: "هو أن يلتزم الشّاعر ما لا يجب عليه، ليدلّ بذلك على غزره، وسعة ما عنده."¹

ومن المعروف لدى جمهور القراء أنّ التّجربة الشعريّة محدودة المناحي عند الإبراهيميّ، "فهو صاحب شخصية كثيرة الحركة مشدودة إلى فكرة، أو إلى غاية قد لا تؤدّيها رسالة الشّاعر كاملة بقدر ما تؤدّيها رسالة الكاتب المفكّر الأديب في المواقف الخطابيّة، أو المقاليّة."²

ولعلّ نتاجه الشعريّ موقوف على الأراجيز لأنّه وجد في نظمها تلاؤماً، وانسجاماً بين الرّجز، والنّثر المسجوع الذي برع فيه نتيجة تأثره بمدرسة الصنعة اللّفظيّة

فالنّصّ — من الناحية الأدبيّة الفنّيّة — عبارة عن مسرحية عنوانها (رواية الثلاثة)، يحاول محمّد عبّاس كان جاريّاً على أن يعطي تفسيراً لكلمة (رواية)، فيقول: "ولعلّ الشّيخ يريد بلفظة (رواية) ذلك المصطلح الذي ألسنة الجماهير الجزائريّة، والذي كانوا يعنون به التّمثيليّة، أو المسرحيّة التي تلتزم الهزل أساساً، والفكاهة عنصراً"³.

أمّا لفظة (الثلاثة)، فتعني الشّخصيات الرئيسيّة في المسرحيّة، والتي أخذها الشّيخ من واقعه، وبيئته وتتملّ في السّعيد بن حافظ مدير مدرسة بقسنطينة، وعبد الحفيظ الجّنان، ومحمّد بن العابد الجّلاّلي، وهما معلّمان بالمدرسة نفسها.

ظروف ودواعي كتابة نصّ (رواية الثلاثة) لقد نفى الشّيخ البشير الإبراهيميّ إلى مدينة أفلو "وكان ذلك في 8 أفريل من عام 1940م"⁴، حيث أقام بهذه المدينة ثلاث سنين تحت الإقامة الجبريّة التي لم تحدّ من نشاطه النضاليّ، أو تقلّل من عمله الإصلاحيّ بل زادت حرصاً، وإصراراً على مواصلة دأبه إيماناً منه بقضيّة شعبه.

1 - ابن جنيّ أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد عليّ التّجّار، ج2، ص: 234.

2 - عبّاس محمّد، البشير الإبراهيميّ أديباً، ص: 237.

3 - عبّاس محمّد — البشير الإبراهيميّ أديباً، ص: 272.

4 - عبّاس محمّد — البشير الإبراهيميّ أديباً، ص: 52.

كما أنّه لم يركن إلى الخمول، بل عكف على الكتابة، والتأليف مستلهمًا الأفكار، والتصورات من الفراغ الذي يملأ حياته، وهو في منفاه، ومستشفًا روح التأمل في مناحي الحياة المتعدّدة غير مبالٍ بما تُحيكه السلطة الاستعماريّة من مكائد، ودسائس ضده، وضدّ المناضلين الشرفاء أمثاله.

لكن ما حَزَّ في نفس الشيخ، وأثار استياءه هو جفاء أصدقائه له، وتناسيهم إيّاه بعد أن أبعد عن الأهل والأحبة، إلى منفى لا أنيس فيه، ولا جليس، وقد كانت تربط الشيخ بهؤلاء الأصدقاء علاقة حميميّة لا تنفصم عراها، ولا تنقطع حبالها لأنهم كانوا أقرب الناس إليه تجمعهم بهم أواصر الصداقة، والمحبة، والمودة ظانًا أنهم سيسارعون إلى مراسلته، ويسألون عن حاله، وهو في منفاه.

قسّم الإبراهيمي مسرحيته إلى ثلاثة فصول سمّاها جلسات، يمكن تحديد عناوينها على النحو الآتي: الجلسة الأولى (انتخاب رئيس المكتب)

الجلسة الثانية (عرض المشكلة) المتمثلة في التفكير في كيفية توفير الفرنك الذي هو ثمن الطابع البريدي للرسالة.

الجلسة الثالثة (حلّ المشكلة) المتمثل في توفير الفرنك، وإرسال الرسالة إلى الشيخ في منفاه.

ولكنّه مُقَيِّمٌ لوضعهم الاقتصاديّ، ومدرك لحالهم الاجتماعيّ، فيرجع السبب في عدم مراسلتهم له إلى (الفرنك) الذي هو ثمن الطابع البريدي للرسالة، والذي تعدّر على ثلاثتهم جمعه، وتوفيره، وهو المحور الأساسي للمسرحية، والعنصر المحرّك لأحداثها.

وللفن المسرحي خصائص معيّنة تميّزه عن باقي الفنون الإبداعية الأخرى.

يقول محمد زكي العشماوي: "إنّ من عناصر الفن المسرحي: القصة، والممثل، والمسرح، والجمهور والحوار...، ويتعاون كلّ هذه العناصر في غير تضارب، أو تنافر يصل الكاتب إلى عمل فنيّ متكامل متناغم"¹ فنصّ (رواية الثلاثة) يتوقّر على هذه العناصر، ومنها:

1 - القصة، وتنمّل في الأحداث التي عاشها الأصدقاء الأربعة (شخصيات المسرحية) أثناء التقائهم في المدرسة، واجتماعهم في مكتب مديرها.

1 - العشماوي محمد زكي - المسرح أصوله، واتجاهاته المعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ص: 13

2- الممثل، ويتمثل هذا العنصر في شخصيات واقعية هي:

- الشيخ السعيد بن حافظ.

- عبد الحفيظ الجنان.

- محمد بن العابد الجلالي.

- بوشمال.

3 - المسرح، وهو مكتب المدير، وما فيه من أثاث كالطاولات، والكراسي، وبعض السجلات، والدفاتر والأوراق الملصقة.

4 - الحوار، ويتشكل هذا العنصر في الحديث الساخن، والنقاش الحاد الذي يدور بين شخصيات المسرحية، والذي يُعبّر عنه الإبراهيمي بقوله: "قراد، ومردود عليه، وسائل، ومجيب، وهاجم، ودافع وبن، وهادم"¹

5 - الجمهور يمكن توفير هذا العنصر عند تجسيد أحداث المسرحية على خشبة المسرح ضمن إطارها الفني، والإبداعي.

وعلى الرغم من أن الإبراهيمي يُطنب في الحديث عن سلوكيات كل شخصية من شخصيات مسرحيته وما تميّزت به من طبائع، وسجايا إلا أنه يُقحمها - بعد ذلك - في لحمة ليصنع منها أحداث قصته فلولاً اختلاف أمزجة هذه الشخصيات لما استطاع الكاتب أن يسير بأحداث هذه القصة كل هذا السير.

والمسرح هو عمل جماعي يهدف إلى تصوير الواقع تصويراً حياً يشمل حياة الناس، ولا يخص فرداً معيناً.

يقول محمد زكي العشماوي في هذا المضمّن: "...، فالمسرحية تصوّر لك الأفراد، لا فرداً واحداً، وهي تعرض عليك مجموعة بشرية يحاول كل فرد فيها أن يعرض عليك نفسه، لا على أنه فرد مستقل بوجوده ولكن على أنه فرد مرتبط في أفعاله، وسلوكه بجماعة من الناس."² "فكاتب المسرحية الذي يُنطق الشخوص، ويُحركها لا يعبر عن وجدان ذات واحدة، ولا ينحصر في تجربة واحدة دون سواها، وإنما يعبر عن وجدانات مختلفة متضاربة..."³

1 - الإبراهيمي محمد البشير - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، الشركة الوطنية للنشر، والتوزيع - الجزائر، 1978م، ص: 282

2 - العشماوي محمد زكي - المسرح أصوله، واتجاهاته المعاصرة، ص: 15

3 - العشماوي محمد زكي - المسرح أصوله، واتجاهاته المعاصرة، ص: 15

ونجد هذا الجانب واضحاً في مسرحية الإبراهيمي حين عبّر عن شخصياتها، وترجم الحركة الانفعالية لكل شخصية، وما فيها من تباين في الطبع، والمزاج.

أراد الشيخ أن يعبر بهذا العمل المسرحي الفني عن التأزم النفسي الذي غمر وجدانه، وزعزع كيانه جرّاء ظروف قاسية عاشها في منفاه، والتي أفرزت إسقاطات شحّنها بها شخصيات مسرحيته. وجهه — عن طريق الحوار فيها — لومه، وعتابه إلى أصدقائه الثلاثة على نسيانهم إيّاه، وعدم مراسلتهم له من جهة، وللتعبير عن الظروف الاجتماعية المتدهورة التي عاشها الشعب الجزائري أثناء فترة الاستعمار الفرنسي من جهة ثانية، وليتسلّى، ويبعد الملل الذي أملاه عليه فراغ العزلة، والوحدة، والوحشة من جهة ثالثة. أمّا من الناحية الأدبية، والفنية، فكان الشيخ يهدف — من خلال عمله هذا — إلى تحفيز أصدقائه الثلاثة على ممارسة هذا النوع من الأدب الهزلي.

جاء في قول الشيخ: " فقد داعبنا بهذه (الرواية) ثلاثة أساتذة هم: لنا أبناء، وهم فيما بينهم إخوة كلهم أدباء، فعسى أن تكون حافزة لهممهم في التدريب على هذا النوع الراقي من الأدب الهزلي"¹ يسعى الإبراهيمي من وراء هذا العمل الفني إلى تحريك قرائح هؤلاء الأدباء، وغيرهم، وتنمية ملكة الإبداع لديهم محقراً إيّاهم على اقتحام مجال التعبير الفني الهادف الذي يصوّر يوميات الشعب الجزائري.

أسلوب الرواية:

يصف الإبراهيمي عمله هذا بالسهل المنسجم لما توافر عليه من فصاحة اللغة، ومثانة التركيب فيقول:

"أمّا أسلوبها، فهو سهل منسجم، متلاحم النسيج، متين التركيب، فصيح المفردات، ليس فيه تكلف ولا ركوب الضرورات التي ألف الرّاجزون ركوبها، بريء من التّكلف، والحشو الذي ألفوا أن يختموا به الأبيات، ضعفاً منهم، وضيق عطن في العربية، وقصر باع في مفرداتها، وتراكيبها..."² المستويات اللغوية في نصّ الرواية: ممّا يلاحظ في نصّ الرواية أنّ الجانب اللغوي يطغى بشكل واضح على الجانب الفني كون الإبراهيمي رجلاً محباً للغة، ومولعاً بجمالها.

1 - الإبراهيمي محمد البشير - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص: 287

2 - الإبراهيمي محمد البشير، رواية الثلاثة، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص: 286 و 287

ويؤكد عبد الملك مرتاض هذا المعنى بقوله: "إن نصّ (رواية الثلاثة) لم يكن مدفوعاً إلى بعض ما جاء في نسج الخطاب بوعي فنيّ، وإنما كان مدفوعاً إليه فيما يخال بوعي لغويّ قبل أيّ شيء آخر".¹ إلا أن لغة الإبراهيمي في نصّ هذه الرواية قد اتسمت بنوع من التّشاكل اللّغويّ بين الفصحى، والعاميّة الجزائيّة، وبعض الألفاظ الفرنسيّة مثل (وي، داكور، دوماج، البون، التّمبر... إلخ)، والتي ربّما فرضتها ظروف معيّنة، أو كان للشّيخ قصد فيها. فنرى الخطاب اللّغويّ في هذا النصّ يتأرجح بين مستويين مختلفين، فتارة يسقط إلى الحضيض، وتارة يتسامى إلى قمة الهرم اللّغويّ، ويظهر لنا هذا التّزول، والصّعود في مستوى الخطاب اللّغويّ في البيتين الآتيين على سبيل المثال:

"لِتَتَّقُوا مَسْبَةَ، وَبَهْدَلَةَ
بِكَلِمَةِ ثَنِي الْفَصِيحِ مُفَحِّمًا
قَدْ جَلَّتْ أَنْ أَفْضَ الشَّقَلَّةُ
الْحَقِّ سَدَى، وَالْبَيَانِ أَفْحَمًا"²

فنجد خطاب الشّيخ ينتقل من المستوى اللّغويّ الأدنى المتمثّل في (البهدة، الشقّلة) إلى المستوى اللّغويّ الأعلى المتمثّل في (تنثي الفصيح مفحماً، والبيان أفحماً) فالغائص في معاني النصّ، والمحلل لأفكاره يجده يحمل في ثناياه زخماً حضاريّاً متنوّعاً استطاع الإبراهيمي — بذكائه، ومهارته — أن يعكسه في شكل مسرحية ضمن إطار فنيّ إبداعيّ.

فتارة يتحدّث عن العلوم والآداب، وتارة يذكر سگان الجزائر، وقبائلها، وأنسابها، وتعدّد لهجاتها وعاداتها، وتارة أخرى يَصوّر فيها الحياة اليوميّة لسگان قسنطينة، وما يدور في أزقتها الضيّقة من نشاطات التّجار، والباعة، والحرفيين.

كتبها بأسلوب أدبيّ راق في شكل نصّ شعريّ تميّز بجزالة اللّغة، وفخامة التّعبير، وضمّنها خصوصيات فنّ الشّعْر العربيّ من إيجاز، وإيقاع، ورويّ، وبَنَى هيكلها على حوار تبادلته شخصيات واقعيّة عاشت مع الشّيخ أثناء فترة الاحتلال الفرنسيّ، وقاسمته همومه، وانشغالاته.

1 - مرتاض عبد الملك - خصائص الخطاب في رواية الثلاثة، مجلّة الثقافة، العدد: 87، ص: 241.

2 - الإبراهيمي محمد البشير - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص: 292.

فهرس المصادر، والمراجع:

- 1 - إبراهيمي محمد البشير، آثار البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر، والتوزيع - الجزائر 1978م.
- 2 - إبراهيمي محمد البشير، أنا، مجلة الثقافة، العدد: 87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الطبع المتعددة، ورشة أحمد زبانه - الجزائر، 1985م.
- 3 - إبراهيمي محمد البشير، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر، والتوزيع - الجزائر.
- 4 - بالسايح بوعلام، الشيخ البشير الإبراهيمي الرائد، مجلة الثقافة، العدد: 87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الطبع المتعددة، ورشة أحمد زبانه - الجزائر، 1985م.
- 5 - ابن جني أبو الفتح عثمان، لخصائص، تحقيق محمد علي التجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية 1957م.
- 6 - شيبان عبد الرحمن، الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد: 87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الطبع المتعددة، ورشة أحمد زبانه - الجزائر، 1985م.
- 7 - الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر، والتوزيع - الجزائر، 1981م.
- 8 - عباس محمد، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران.
- 9 - العشماوي محمد زكي، المسرح أصوله، واتجاهاته المعاصرة مع دراسات تحليلية مقارنة، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان.
- 10 - الغزالي محمد، مع البشير الإبراهيمي في القاهرة، مجلة الثقافة، العدد: 87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الطبع المتعددة، ورشة أحمد زبانه - الجزائر، 1985م.
- 11 - مرتاض عبد الملك، خصائص الخطاب في رواية الثلاثة، مجلة الثقافة، العدد: 87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الطبع المتعددة، ورشة أحمد زبانه - الجزائر، 1985م.
- 12 - نور سليمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض، والتحرير، مجلة اللغة، والأدب، العدد: 08، معهد اللغة العربية، وآدابها - الجزائر.